عروس البحر

لِلكاتِبِ الدانِمركي " اندرسن "
بِقلم الأديب كمال الجريري

... هناك ... هناك في عرض البحر المحيط كان الماء يحكي في زرقته المشربة بالخضرة لون ورق الأُعرِّج ، ويشبه في صفائه وشفافته ذوب البلور . ولكنه كان بعيد الغور بحيث لا تبلغ قرارته مرساة مهما طالت ... وهناك كان يسكن شعب الماء ...

ويجب ألا يذهب بنا الظن ، مع ذلك ، إلى أن ليس هناك في تلك المملكة المائية غير الرمال العارية البيضاء ! كلا . إنه لينبت فيها أشجار سحرية عجيبة ، ونباتات جدُّ لينة ملساء لطيفة الجسّ ، حتى أنها لترتعش ككائنات حية لأدنى حسّة من حسات الماء ، أو لمسة من لمسات الموج ... ومن خلل هذه الأفنان ، وفجوات هذه الأغصان المائية ، كانت أنواع السمك صغيرها وكبيرها ، تحوم وتدور حول هذه الأشجار ، كما تحلق وترفرف عندنا عصافير الشجر وطيور الدوح سواء بسواء ...

في غور المحيط كان يقوم قصر ملك الدأماء : جدرانه من نفيس الدر والمرجان ، وشبابيكه من عبق المنبر وشذى الند ، وسقفه من ثمين الصدف وغالي الدر ... وكان السقف يغلق وينفتح حسب حركة الماء واتجاه الموج ...

ولقد كان يزين صدر كل صدفة أو محارة لؤلؤة كريمة أو مرجانة يتيمة ، تكفي واحدة منها لو ازدان بها تاج مملكة أرضية ، لأن تدر على خزائنها الذهب ...

لقد ترمل ملك هذا القصر العجيب منذ زمن طويل ، وكانت أمه العجوز تدير شئون المنزل . وهي امرأة حكمة ورأي ، ليس عليها من مأخذ إلا تعصبها لعراقة أصلها ونبل محتدها الذي خولها من دون أفراد الأسرة جميعها أن تزين ذنبها السمكي باثني عشر عقداً فريداً ، بينما بقية أفراد العائلة المالكة لا يزدان ذنبهم بغير عشرة عقود فقط . وفيما عدا هذا المأخذ وهذه الميزة كانت الأم العجوز من أعطف الأسرة على الأميرات الست بنات ابنها عرائس الماء الجميلات . لقد كن ستًّا ، ما منهن إلا حسناء فتانة ، ولكن الصغيرة منهن ، كانت أجملهن قداً وأشدهن سحراً وفتنة ، ذات بشرة ناعمة ناضرة كأنها ورقة وردة ، وعينين زرقاوين صافيتين تحكيان ماء بحيرة زرقاء عميقة ، إلا أنها كبقية أخواتها كانت لا تمشي على رجلين إنسانيتين ، إنما ينتهي جسمها بذنب سمكي

لقد كان هؤلاء العرائس الجميلات يمرحن ويلهون أكثر النهار في باحة القصر ، حيث الجدر كانت تنبت أزاهير يانعة رائعة هي أبداً في تموج وترجرج وكانت نوافذ القصر العنبرية الندية مفتوحة غالباً ، فكان السمك لا يفتأ يروح ويغدو من البحر إلى غرف القصر وأبهائه كما تلج وتخرج عندنا أسراب السنونو من الغرف حين نفتحها لهواء الربيع ، وكانت

صغار السمك تسبح بين أيدى الأميرات وتترك العرائس الست يداعبنهن دون خوف . ولقد أحيط قصر ملك البحر ببستان أنيق وسيع يانع الشجر رائع الزهر ذى أزاهير ملونة مبرقشة فيها الأحمر الأرجوانى واللازوردى الداكن والأخضر الفاتح ومن خلال الشجر كان يلتمع الثمر كقناديل الذهب ويتوهج الورق مثل مشاعل مضيئة ذات ألوان وشيات مختلفات . أما الأرض فقد كانت مغطاة برمل أزرق أملس ناعم

كل شىء هناك فى الأعماق كان غارقاً فى أضواء زرقاء ساحرة عجيبة ، حتى ليظن أن المكان فى الهواء الطلق ، من تحته سماء ومن فوقه سماء زرقاء أيضاً

وفى أوقات الصحو الجميلة ، كان يطل قرص الشمس على مملكة البحر فيظهر كزهرة كبيرة أرجوانية ، يتألق ويسطع حول كأسها أمواج من أضواء وأنوار

لقد كان لكل واحدة من عرائس البحر الست أميرات القصر مكان فى بستان القصر الوسيع ، اختارته لنفسها تزرع فيه وفق ذوقها ورغبتها ، فاختارت واحدة منهن لقطعة أزاهيرها شكل حوت « البالين » ، وأحبت أخرى أن يكون شكل قطعة أزاهيرها يشبه عروساً من عرائس الماء . أما الأميرة عروس البحر الصغيرة فقد نسقت قطعة حديقتها وأزهارها مدورة على شكل قرص الشمس ولم ترصعها إلا بأزهار حمراء مشتعلة مثل الشمس

لقد كانت عروس الماء الصغيرة بنتاً غريبة الطبع ميالة إلى الهدوء والتفكير ، بينما بقية أخواتها كن يلهون ويلعبن بالعاب وأشياء متباينة يهديها البحر إليهن من غرق المساكين . لم تكن هذه العروس الصغيرة لتلهو ، ما خلا أزهارها الحمراء التى تشبه قرص الشمس ، بغير تمثال مرمرى أنيق سقط إليها من أعلى البحر وكان يمثل فتى جميلاً رائع الحسن

لم يكن أجلب لسرور الفتاة ولا أبعث لانشراحها من إصغائها لكلام من يحدثها عن سكان البر ، لهذا كانت جدتها مضطرة دائماً إلى أن تقص على مسامعها كل ما تعيه حافظتها عن السفائن الجوارى والمدن العامرة ، وعما يعيش عليها من أناس وحيوان . ولقد كان أكثر ما يجتذبها من الأقاصيص أن يقص عليها أن هناك على اليابسة ، تكون الأزهار دوماً عبقة بالأرج شذية بالعطر ، بخلاف أزاهير البحر التى ليس لها عطر ، وأن هناك أيضاً تكون الغابات والأدواح فى خضرة دائمة ، تتطاير عليها أجناس من الأسماك من خاصتها الغناء المطرب الشجى الذى يشعر المصغى إليه بلذة ونشوة ساحرة . ولقد كانت جدتها تسمى هذه العصافير عندنا أسماكاً كى تقرب صورتها إلى ذهن الأميرة عروس البحر الصغيرة ، لأنها لم تر فى حياتها عصافير أو طيوراً قط . كانت الجدة تكرر على مسمع حفيدتها :

— إنك حين تبلغين الخامسة عشرة يا بنيتى ، سيكون لك الحق أن تعتلى سطح الماء وتصعدى إلى وجه البحر وتجلسى على صخوره الملس الناعمة وتبصرى السفائن الكبيرة والدوارع العظيمة التى تخطر على سطحه فى ضوء القمر . نعم وستتمعين حينذاك بمشاهدة المدن والأمصار والغابات والبساتين التى تتوقين لرؤيتها . كانت الأميرة البكر ستكمل سنيها الخمس عشرة بعد عام ، وكل من الأميرات الست تكبر أختها بسنة واحدة . وإذن فستمضى

على عروس الماء الصغيرة أصغر أخواتها خمس سنين حتى تستطيع بعدها الصعود إلى وجه البحر وا كتشاف عجائب اليابسة . ولكنا أذن للأميرة البكر أن تصف لأخواتها ما جذب عينيها وسحر فؤادها من مشاهد ومراء غريبة تشاهدها فى اليابسة لأول مرة من صعودها . وذلك أن الجدة لم تقل كل شىء لحفيداتها اللائى كن ينتظرن بنافد الصبر أن يعرفن كل شىء عن اليابسة ولم يكن أكثر ولوعاً بالمعرفة وتشوفاً للاطلاع من عروس الماء الصغيرة ، ومع ذاك كانت نوبة سياحتها إلى الأعلى آخر أخواتها ...

وغالباً ، حين يسدل ستار الظلام ، كانت الصغيرة تظل مرتفقة قاعدة نافذتها المفتوحة ، تتملى بمشاهدة لازورد الماء الداكن حيث الأسماك المختلفة الحجوم ما تنى عن الطواف والحومان ، محركة أذنابها أو راقصة بزعانفها . . . كانت العروس الصغيرة تبصر القمر ، والنجوم من خلل أطباق الماء مصفارّة كابية الوجه مطموسة الأثر ، ولكنها كانت تلوح أكبر حجماً مما تبدو لأعيننا . وفى بعض الأحيان ، كان يُخيل للفتاة ، أن سحابة من السحب تحجبها عن عينيها ، فتعلم حينذاك بأن صوت « البالين » يمر فوق رأسها ، أو أن هناك على سطح البحر سفينة مشحونة بالأموال والرجال تمخر فى الدأماء أو تتصور أن هناك فى الأسفل منها ، عروساً للماء صغيرة كانت تمد يديها البيضاوين إليها فى لهفة واشتياق .

وأخيراً أقبل اليوم الذى بلغت فيه الأميرة عروس البحر الكبرى أعوامها الخمسة عشر ، والذى تستطيع بعده أن تصعد لسطح البحر . وفى عودتها كانت حافظتها تختزن لأخواتها ألف شىء ومشهد يستحق الذكر . ولكن كان أحب شىء إليها وأفتن مشهد لعينيها التمدد فى ضوء القمر على بساط الرمل الأبيض الناعم بجانب بحر هادىء صاف ، ومشاهدة الساحل الواسع ، وقد احتضن المدينة الكبرى التى كانت أضواؤها ومصابيحها تلمع فى حلك الليل كمئات من النجوم الزواهر ، ثم الإصغاء إلى عزف الموسيقى الشجى ، ودوى العربات ولغط الجماهير ، وأخيراً تأمل الأبراج الشماء والقباب الباذخة يتردد فى جنباتها قرع نواقيس الكنائس المشيدة . . .

كانت عروس الماء الصغيرة ، تصغى لسرد مشاهدات أختها فى شغف ، ومنذ ذلك لم تنقطع عن الجلوس إلى نافذتها المفتوحة على عجائب البحر ومناظره ، ولم تفتر عن التفكر فى هذه المدينة العجيبة ذات الضوضاء المرتفعة والمصابيح المتوهجة التى لا تعد .

بعد مرور سنة جاء دور الأخت الثانية للصعود إلى سطح البحر والسياحة فيه حيث يطيب لها الانتقال ولقد صعدت إلى سطح الدأماء فى الوقت الذى كانت الشمس تميل للغروب ...

وحينئذ رأت من مشاهد الروعة والفتنة والنور ما لم تره سابقاً فى حقيقة أو تتصوره فى وهم وخيال . كانت تقص على أخواتها :

لقد كانت السماء بأجمها قطعة من ذهب ، وقطع السحائب مموهة بألوان من الحمرة والبنفسج زاهية رائعة ليس فى الإمكان وصفها ولا تصويرها . ولقد كان يحلق فوق رأسى ويرفرف ، ولكن فى سرعة تفوق سرعة السحب الطارزة الغارقة فى ألوان الطيف ، سرب من الإوز المائى كان يطير فوق الماء فى نفس

المكان الذى كانت تغوص فيه عروس النهار فى جوف البحر . لقد أردت أن أسبح صوب قرص الشمس الغريق ، ولكن الشمس توارت وتوارى بعدها كل ما فى السحب من ألوان زاهية متموجة وما على سطح البحر من أطياف ملتهبة متوهجة

بعد سنة جاء دور الأميرة الثالثة للصعود إلى سطح البحر . وبما أنها كانت شجاعة القلب جسورة فقد امتطت غارب تيار نهر كبير يصب فى البحر . وهناك أبصرت آكاماً ممرعة بماطر النبت ، وتلاعاً مستورة بناضج الأعناب . فوقفت تصغى لغناء الطير وترجيع العصافير ، ولكن أشعة الشمس كانت من التضرم وشدة الحرارة بحيث كان عليها كل فترة أن تغوص فى الماء كى تبرد من لافح حرها وجهها الحران . ولقد شاهدت فى حمام بحرى على الساحل طائفة من صغار الأطفال ينغمرون فى الماء ، فأحبت أن تلهو معهم وتشترك وإياهم فى اللعب والسباحة ، لولا أنهم فزعوا منها ولاذوا بالفرار . وحينئذ أقبل حيوان أسود اللون ـ وكان كلباً لم تعرفه وتبصر مثله عروس الماء فى حياتها ـ أخذ يصيح وراءها صياحاً شديداً مزعجاً حتى أخافها وألجأها إلى الاحتماء فى أعراف الموج .

لم يكن عند عروس الماء الرابعة شجاعة كافية لهذا ظلت فى وسط البحار المنعزلة عن الناس فقصت على أخواتها أن المناظر هناك كانت أيضاً أروع وأبدع

وأزف اليوم الذى تستطيع فيه الأميرة الخامسة من عرائس البحر أن تصعد إلى وجهه ، وبما أنها ولدت فى قر الشتاء لهذا كانت شهيدة لمناظر أخرى. كان سطح البحر الوسيع غارقاً فى خضرة لازوردية زاهية ، وفى كل جهة ؛ كانت تطفو وتتراقص أمواج هائلة كالجبال فى لون اللؤلؤ اللماع وبريق الماس الوضاء ، على أشكال مختلفة جبارة الحجم ، فى حين أن قطائع السفن والمراكب كانت تفر منها وتتجنبها هولاً وفزعاً

ظلت عروس الماء متربعة على إحداها تداعب خصائل شعورها الطويلة المغدودنة نسائم البحر . وفى السماء تغطى أديم السماء بقطع السحب السود ، وأخذ البرق يلتمع والرعد يقصف من آفاق السماء ، وارتدت الأجواء والسماء والدأماء طيلسانا أسود مهيباً من الظلمة ، فريعت السفائن والمراكب وطوت شرعها ولجأت إلى الساحل ، إلا عروس الماء فقد لبثت هادئة على ظهر البحر تنظر فى اطمئنان وثبات جاش إلى زمجرة الأواذى وقصف الرعد ثورة الطبيعة

. وفى الغالب كان عرائس البحر يأخذ بعضهن فى المساء أيدى بعض ويخرجن معاً إلى وجه البحر . لقد كان لهن صوت شجى حنون أشجى وأطرب من الأصوات التى تطلقها حناجرنا على الأرض

وحينما تزأر عواصف البحر وتصطخب أمواجه الهوج فتضطر السفائن إلى الإخلاد إلى موانيها ، كان العرائس الخمس يحمن حول السفائن ويسبحن تجاهها متغنيات بأصواتهن الحلوة الموسيقية على جمال وفتنة هوى البحر وحفره وأغواره ودوّاراته ، داعيات الملاحين إلى النزول إليها دون خوف . ولكن الملاحين لم يكونوا يفقهون لهذه الأراتيم معنى لأنهم كانوا يظنونها عويل الرياح أو زمجرة العاصفة

حين كان العرائس الخمس يصعدن هكذا إلى وجه البحر كل واحدة يدها بيد أختها كانت أختهن

عروس الماء الصغيرة تظل وحدها تتبعهن نظراً حزيناً متوسلاً مشوقاً وتكاد تتفجر من مآقيها دموع الحزن لولا أن نعمة تذراف الدموع كانت من النعم المحرومة إياها منها عرائس البحر وذلك ما كان يزيد نار حزنهن اضطراماً . لقد كانت تناجي نفسها في أسى ولوعة :

— أوه ! متى أبلغ الخامسة عشرة من عمري ! إني لأحسّ أني سأعشق العالم الأرضي وسأهيم بمن يسكنه من الرجال ...

وأخيراً ... بلغت أعوامها الخمسة عشر . فقالت لها جدتها :

— حسن ، ها أنت ذي حرة طليقة فتعالي أجمّلك وأزينك كما فعلت بأخواتك . . . وفعلاً وضعت على رأسها إكليلاً من زنبق اللؤلؤ كل ورقة منه كانت نصف لؤلؤة مكنونة ، ثم ناطت بذنبها المياس ثماني أصداف لؤلؤية ومرجانية رمزاً لعراقة أصلها . وقالت عروس الماء الصغيرة لجدتها :

— إلى الملتقى . ثم عرجت إلى سطح البحر في خفة فقاعة الصابون . كانت الشمس على وشك الغروب حين أبرزت العروس الصغيرة رأسها من غمر الماء . ولكن السحب كانت مغمورة بلون الورد والذهب . وفي وسط سماء باهتة كانت نجمة المساء تلتمع في أبهة وروعة . وقريباً منها شاهدت عروس الماء سفينة كبيرة تتأرجح على أعراف الموج وقد استراح الملاحون عليها يصغون لعزف الموسيقى ولحن النشيد اللذين أخذا يتردادان من أطرافها . ولما كان الليل قد بسط جناحه فقد أضيئت في السفينة مئات من المشاعل مختلفة الألوان والحجوم حتى لكنت تحسبها جميع أعلام دول الأرض ترفرف في الهواء

سبحت عروس الماء الصغيرة حتى حدود نوافذ «صالون»[1] السفينة وفي كل مرة ترفعها فيها موجة كانت تتبصر إلى الصالون من خلال زجاج النافذة الشفاف فتشاهد جماعة من الرجال في هيئة الزينة وتحضير « التواليت[2] »

وكان أول من استرعى اهتمامها فتى رائع الحسن مليح الوجه أسود العينين في السابعة عشرة من سنيه . ولقد كان هذا اليوم ذكرى يوم ميلاده ، لهذا فإن رهط المجتمعين كان محتفلاً والحفلة مقامة لعيد ميلاده . وكان حين يظهر شخص الفتى بين الجمع ، تطلق تحفياً به مئات من السهام النارية في الفضاء فتضيئه وتجعله كأنه في وضح النهار . لقد ذعرت عروس الماء أولاً لهذا النور الوهاج فغطّست رأسها في الماء ؛ ولكنها ظهرت ثانية ، فخيل لها حينئذ بأن جميع شهب السماء ونجوم الفلك تتساقط وتتهاوى على البحر . أبداً لم تبصر عيناها شبيهاً لهذه الأضواء الساطعة الباهرة ، ولا مثيلاً لهاتيك الشموس المتوهجة الدائرة ، ولا نظيراً لتلك الأسماك النارية الخطّارة التي جعلت عنان السماء الزرقاء مسبحاً لها وبحراً ، كل هذه المشاهد الألقة الوهاجة كانت تنعكس على صفحة البحر وتتكرر على أديمه آلافاً من الأشعة والأضواء . آه لشد ما كان منظر الأمير الفتى رائعاً جذاباً . إنه ليسلم على كل شخص ويحييه بينما ألحان الموسيقى الشجية تملأ أذن الليل .

وتقدم الليل وعروس الماء الصغيرة لم تستطع

(١) ، (٢) ليعذرنا القارئ في استعمال هاتين الكلمتين وإن كبر الأمر على مجمعنا اللغوي الملكي

أن تنتزع نظراتها من السفينة الجذابة ولا من الأمير الجميل . على أن المصابيح اللألاءة قد انطفأت أنوارها والسهام النارية الوهاجة انقطع طعنها أديم السماء . ولكن ما زال يتردد الآن فى أعماق البحر وعلى حواشيه زمجرة الأمواج وصخب اللجج . لقد امتطت عروس الماء الصغيرة صدور الأمواج وراحت تتأرجح عليها ، بصورة كانت تستطيع معها من حين لآخر أن تلقى نظرة من نوافذ السفينة وكواها على من فيها من الركاب . ولكن فجأة أخذت قطع جسيمة من السحب تتراكض فى ميدان السماء ، بينما سنا البرق بدأ يلتمع ويومض فى حاشية الأفق البعيد . ثم تضخمت الأمواج وعلت كالجبال منذرة بهبوب العاصفة العاتية . وراح الملاحون يطوون الشرع المنصوبة وقتذاك ويخففونها ولكن السفينة كانت تدور كالدوامة بسرعة هائلة وسط هذا البحر اللجى المزبد واللجج تعلو وتعلو كأنها جبال هائلة سود تريد أن تسحق السفينة إلا أن السفينة اللدنة الميساء ، كانت تغوص فى بطون الأثباج ، كى تعود وترتقى بعد لحظة قمم الأمواج العالية . ولقد وجدت عروس الماء الصغيرة فى ارتكاض السفينة وتأرجحها فى أحضان الموج منظراً مسلياً جذاباً ، ولم يكن ذلك رأى الملاحين المذعورين . فلقد كانت السفينة تعول وتئن لأن أخشابها الرقيقة كانت هدفاً لصدمات الأمواج الطافية العنيفة التى كانت تحدق بها من كل مكان . وأخيراً تكسرت ساريتها الكبيرة مثل جذع شجرة خاوية هرمة ، ثم مالت السفينة من جهة بينما أخذ الماء يستولى عليها وتتدفق لججه إليها من كل مكان . حينئذ فقط شعرت عروس البحر بالخطر وأدركت هوله . فلقد كان عليها هى نفسها أن تتجنب الاصطدام بقطع السفينة المحطمة وأخشابها المتكسرة العائمة . ثم هبط الليل فأصبحت الظلمة من الكثافة بحيث لم تعد تبصر شيئاً . اللهم إلا ما يلتمع من حين لآخر من سنا البرق فيظهر الفتاة على ما يحدث هناك فى الشاطئ . وقبل كل شىء بدا لها أن تفتش عن الأمير الفتى الجميل . فأبصرته فى نفس الوقت الذى انشقت فيه السفينة إلى شطرين وهوت فى أعماق البحر . لقد كانت جد مرتاحة مسرورة حين خطر لها أن الأمير الجميل سوف ينزل إليها فى موطنها البحرى ، ولكنها سرعان ما ذكرت أن جنس البشر الأرضى لا يقدر على العيش داخل الماء . وإذن فلا بد أن يصل إلى قصر أبيها فى أعماق البحر ميتاً ! أوه ، ولكن لا ، إنها لا تريد أن يموت أو يمسه سوء . وهكذا تناست فجأة كل خطر كان يحيط بها بسبب الاصطدام بقطع السفينة العائمة ، فقذفت بنفسها إلى البحر سابحة بين بقايا السفينة وأخشابها . . . وأخيراً لحقت بالأمير المليح ، فإذا هو هامد فاقد لشعوره لا مقاومة فيه ولا حراك . كانت يداه ورجلاه كقطع من جليد ، وعيناه مغمضتين غمضة الموت ، ولقد كان على وشك الهلاك لو لم تداركه عروس الماء الصغيرة التى أسندت رأسه إلى صدرها الناهد ، تاركة جسمها يعوم على هوى الأمواج .

وفى الصباح هدأت ثورة العاصفة ، ولكن لم يبق من السفينة الغريقة أى أثر أو دليل . ثم ظهرت الشمس وراء البحر حمراء وهاجة ، وكأنها بحرارتها قد أعادت الحياة والدماء إلى خدى الأمير الجميل ! ولكن عينيه ظلتا مغمضتين . قبلت عروس البحر الصغيرة جبينه الوضاء ، ورتبت شعره الأثيث

الكستنائى . وحينئذ بدا لها أنه يشبه كل الشبه التمثال المرمرى الذى أقامته هناك فى حديقة أبيها وأولعت به الولوع كله، فقبلت الأمير ثانية ، وودت من كل قلبها لو أفاق من غشيته .

وألقت نظرة على ما حولها ، فإذا بها تشاهد البر فسيحاً رائعاً ، وجبالاً شماء زرقاء مستورة القمم بتيجان الثلج اللتمع الأبيض ؛ وعلى طول الساحل تمتد غابة كثيفة لفّاء يبدو بجانبها بناية ضخمة . لم تدر أهى كنيسة أو دير ! ولقد كان يحتاط هذه الكنيسة حديقة غناء شجراء من شجر الليمون والبرتقال ، وأمام بابها تنتصب شجرة من النخيل . ولقد كان البحر ينتهى هناك بخليج هادىء عميق ، تحتاطه حصى لمّاعة جميلة ورمال ناعمة صفراء بهيجة . فسبحت عروس الماء إلى ذلك الخليج حاملة على صدرها الأمير الجميل المغشى عليه . ثم أنامته على الرمل الأملس واضعة رأسه أعلى من جسمه ، ومديرة وجهه صوب الشمس . وأخذت نواقيس الكنيسة الكبرى البيضاء تتجاوب أرانينها فى الفضاء ، فبرز فى حديقة الكنيسة سرب من غيد حسان ، وحين مشاهدتهن توارت عروسنا الصغيرة خلف صخرة بارزة هناك ، وقد سترت صدرها ورأسها بزبد البحر كيلا يبصرها أحد . ومن مخبئها راحت ترقب الكواعب الحسان ، وفجأة اقتربت منهن فتاة من الأمير النائم ، فبدا على وجهها الذعر أولاً ، ولكن خوفها لم يلبث طويلاً ، فقد نادت رفيقاتها إليها ، وعندئذ رأت عروس الماء أن الأمير قد أفاق من غشيته وراح يبتسم فى سرور إلى من التف حوله من الفتيات . ولكن لم يَجُد على العروس الصغيرة بابتسامة واحدة . . . إنه ليجهل أنها هى التى أنقذت حياته من الغرق . عند هذا شعرت عروس البحر بالأسى يرمض حشاها ، وبار الغيرة تكوى أضالعها ... وحين حملته إلى الكنيسة الكبرى ، انغمرت عروس الماء فى أعماق البحر جدّ مبتئسة حزينة ، وأخذت طريقها إلى قصر أبيها

لقد كان من عادتها السهوم والتفكير والجد فى تصرفاتها . أما الآن فقد تضاعفت هذه الخصال فيها ، وأخذ أخواتها يسألنها عما شاهدته فوق البحر ، ولكنها لم تقص عليهن شيئاً

كانت تصعد فى الصباح إلى المكان الذى تركت عنده أميرها الجميل الغائب . فكانت تشاهد نضوج فاكهة البستان وقطافها ، ثم تبصر ذوبان الثلوج وانحدارها إلى بطون الأودية . ولكن الأمير الجميل حبيبها الفاتن لم تره أبداً ويا للأسف . فلا تعود فى كل مرة إلا وقد تضاعف أساها وتزايد شجاها . فتكون سلوتها عند أحزانها أن تظل فى بستان قصرها العجيب الرائع ، جالسة بجانب التمثال المرمرى ، تحيطه بذراعيها وتلثم بشفتيها جسمه الذى يشبه الأمير الحبيب كل الشبه

وفى النهاية لم تستطع أن تحتفظ بسرها ، فأنهته إلى واحدة من أخواتها ، وهذه بطبيعة الحال أطلعت عليه أخواتها الأربع . إلا أنها أخذت عليهن موثقاً أن يكتمنه عن جميع عرائس البحر . فكتم السر فعلاً ، إلا عن عروسين من خلّص الصديقات ، كانت واحدة منهن تعرف الأمير ورأته سابقاً على السفينة ، ثم إنها كانت تعلم فى أى مملكة من الأرض يقيم

قال الأميرات الأخوات لأختهن عروس البحر الصغيرة :

تعالى معنا يا أختاه . ثم عقدت كل واحدة منهن يدها فى يد أختها وصعدت إلى وجه البحر كشريط من « الريبان » تماماً أمام قصر الأمير . والآن قد عرفت عروس الماء الصغيرة منزل الأمير ، فقد كانت تتردد دائماً إليه فى الصباح وفى المساء ، وتتقدم بجرأة الستهام إلى أمكنة أبعد مما وصلت إليها أخواتها بل إنها تشجعت مرة فامتطت القناة الصغيرة ، حتى بلغت أسفل الشرفة المرمرية البيضاء التى كانت تلقى على سطح البحر ظلها الطويل . وهناك لبثت تحت ضوء القمر تتأمل الأمير وقد ظن نفسه وحيداً ...

كانت تراه غالباً يتنزه فى الماء على ظهر زورق خفيف ، فكانت ترقبه وقت ذاك من خلال العواسج والقصب البحرى .

ومرات عديدة حينما ينسدل ستار الليل ويسهر الصيادون على غوارب مراكبهم يصطلون النار ، كانت عروس البحر الصغيرة تسمعهم يقولون مئات من الأحاديث الجميلة عن الأمير الفتى ، فكانت تسر وتزهى حين تفكر فى أنها هى وحدها التى نجت حياته حين كانت تتقاذفه اللجج . وتذكر أيضاً كيف أسندت رأسه الجميل إلى صدرها المشوق وطبعت على جبينه قبلة مشتعلة ... ولكنه هو لا يدرى من هذا شيئاً ، حتى إنه لا يستطيع أيضاً أن يفكر فى وجودها

وراحت عروس البحر شيئاً فشيئاً تهيم بعالم اليابسة ورجاله وتود وتتمنى أن تندمج بأهله . لقد كان يخيل إليها أنه أكبر من عالمها ما دام يُستطاع المخور فى عباب البحر على ظهر السفائن والارتقاء إلى قمم جباله الشم التى تطعن فى صدور الغيوم كما يُستطاع الإطلالُ من هناك على بلاد عجيبة وغابات شجراء لفّاء وحقول وسيعة منبسطة .

إن فى نفس عروس البحر عدة أشياء تتوق إلى الاستعلام عنها ، ولكن أخواتها ما كن يعلمن كل شىء . وحينئذ كانت تسأل جدتها التى كانت قد خبرت الشىء الكثير عن العالم « العلوى » كما كانت تطلق على الدنيا التى توجد فوق الماء . وكثيراً ما كانت العروس الصغيرة تسأل جدتها :

— حينما لا يموت الناس غرقاً أيحيون دائماً أم أنهم يموتون كما نموت نحن ساكنى البحر ؟

فكانت جدتها تجيبها :

— إن الموت شىء لا مفر منه أيضاً عندهم ، ثم إن حياتهم أقصر من حياتنا إذ بإمكاننا أن نعمر ثلاثمائة سنة . ولكن حين ينتهى أجلنا لا نتحول مع الأسف إلى أكثر من رُغاء من الزبد يطفو على وجه البحر ، وليس لنا قبر يضم جسدنا بجوار من أحببناهم كثيراً فى حياتنا ، ولا روح خالدة لنا لأنه لن يكون لنا معاد ولا حياة ثانية ، فمثلنا كمثل هذا القصب البحرى والعواسج التى إن قُطع شىء منها فلن يعود . أما الرجال هناك فعلى العكس منا ، إنهم يملكون أرواحاً خالدة باقية تنبعث ثانية حين يصبح جسدها رميماً فتمرح حينذاك إلى السماء المضيئة وتعيش سعيدة بين جماعات النجوم اللوامع . قالت عروس الماء وقد أثر فيها حديث جدتها :

— آه . لم كنا نحن عرائس الماء لا نملك أرواحاً خالدة لا تفنى ؟ إنى لأتنازل راضية عن الثلاثمائة السنة التى سأعيشها كى أنعم يوماً واحداً بين هذه المخلوقات البشرية ، وكى أنال حظى من الخلود بعد ذلك فى عليا السموات . فأجابتها جدتها :

— لا تفكرى فى أمثال هذه الخواطر يا صغيرتى إننا هنا أكثر سعادة وأرغد عيشاً منهم هناك

— ومع كل هـذا سيكون نصيبي الموت والتلاشي يوماً ما حين أغدو قطعة من الزبد تطفو على البحر دون أن تستطيع سماع موسيقى الأمواج ولا رؤية الأزاهير الأرجة الجميلة ، ولا مشاهدة الشمس الساطعة . آه يا جدتي العزيزة، ألا أستطيع عمل شيء في سبيل الحصول على روح خالدة ؟ فقالت لها جدتها :

كلا يا صغيرتي ، إلا أن يتدلّه بحبك رجل من هناك ، فتصبحي أعز عليه من أمه وأغلى من أبيه . فإذا اختص بك وتعلق بحسنك قلبه وفكره ، وإذا ذهب هو بنفسه إلى الكنيسة عاقداً يده بيدك كيما يحلف أمام الراهب يمين الإخلاص والمحبة الأبدية لك، حينئذ فقط تمزج روحه الباقية بروحك الفانية فتنالين قسطاً من سعادة خلود الروح . ولكن هذا يا بنيتي لن يتأتى لك بحال ، لأن ذنبنا الذي نعتبره نحن هنا في البحر من أثمن الحلى وأبدع الزينة الطبيعية يجدونه هناك مشوهاً للجمال وقذى في العين؛ وكي تروقهم وتعجبهم ، ينبغي لك أن تستبدلي بذنبك أوصالاً يدعونها رجلين . فتأوهت الفتاة في التياع وهي تنظر أسوانة إلى ذنبها السمكي . فقالت الجدة :

— ومع ذاك لم الحزن والتشكي ؟ إننا جد سعداء ما دام أمامنا ثلاثمائة عام من الحياة وهذا يكفي

وبعد أيام أخذت عروس الماء تفكر في العالم العلوي . لم تكن تستطيع أن تنسي وجه الأمير الجميل ولا أن تطرد من ذهنها أمنى حرمانها الروح الخالدة مثل روحه . لهذا خرجت من لدن جدتها ذات يوم ، وتوجهت إلى بستانها الصغير . وما كادت تبلغه وتطل من نافذته حتى طرق مسامعها دوي أبواق صيد . وعندئذ فكرت

— لا ريب أنه هو الأمير الذي يمر الآن فوق بأبواق صيده وعدة قنصه ... هو الذي أعزه وأحبه أكثر من أبي وأمي ، هو الذي تتوجه صوبه جميع أفكاري وهواجسي وبه وحده أعلق حبي وقلبي . إني لأخاطر بكل شيء عزيز في سبيل إحرازه وفي نفس الوقت إحراز الروح الخالدة . سأذهب إلى عرّافة البحر بينما أخواتي يرقصن ويهزجن في القصر نعم إنها طالما أفزعتني ، ولكنها ربما تقدر على أن توليني نصيحة أو مساعدة . وحينئذ انطلقت عروس الماء الصغيرة من بستانها الأنيق متوجهة جهة الدوار البحري الهائل الذي تسكن خلفه العرافة . أبداً لم تطرق قدماها هذا الطريق المرعب ، فليس هناك زهور ولا حشائش بحرية . إنما هناك الرمل العاري الذي يمتد حتى الدوار البحري الذي يرمي فيه الماء ويفور ويصخب ويثور كأنما هو منقذف من فوهة طاحون هائل جارفاً إلى الأعماق كل ما يقع تحت متناوله من عرائس وأسماك ، ولم يكن لعروس البحر الصغيرة مندوحة ، كي تصل إلى منزل العرافة من عبور هذا الدوار الهائل ثم المشي طويلاً خلال مسافة واسعة من الزبد الفائر الجارف الذي يحدثه هذا الدوار ، وإلى الوراء في وسط غابة غريبة بحرية كان يوجد منزل العرافة . لقد كانت كل أشجار الغابة وجميع أدواحها مؤلفة من أخطبوطات بحرية وهي كائنات حيوانية نباتية تشبه أفاعي ذات مائة رأس تنبت من الأرض ، وأما أغصان هذه الأشجار فكانت في هيئة أذرع جبارة طويلة لزجة ذات أصابع طويلة ملساء كالبلور ، ومن جذور ، حتى قمم هذه الأشجار الهائلة كان كل مفصل منها ومقطع في حركة وارتجاج . لقد كانت تزدرد كل شيء يوقعه سوء حظه

بين أطرافها الجبارة . وحينئذ تلتف حوله ولا تدعه أبداً . لم تستطع عروس البحر الصغيرة أن تتقدم أكثر مما تقدمت . فلقد كان قلبها يخفق رعباً وفزعاً وهمت بالعودة لولا أنها أعادت الفكر فى الأمير الجميل وفى الروح الباقية فتشجعت . ربطت حول رأسها غدائرها الطويلة كيلا تستطيع الأخطبوطات أن تتلقفها وتتشبث بها ، ثم عقدت يديها على صدرها وقذفت بنفسها إلى ما بين الأخطبوطات فانزلقت على الماء كما تنزلق سمكة رشيقة، وعبثاً حاولت الأخطبوطات وقفها أو جذبها إليها بأرجلها الكريهة المرنة اللدنة

وبلغت أخيراً بقعة واسعة لزجة زلقة ، حيث شاهدت أفاعى بحرية جبارة تتحوى وتتلوى على ظهورها وبطونها الكريهة الصفراء المبرقشة . وفى وسط هذه البقعة ، كان يوجد بيت مشيد بعظام وهياكل وجثث الغرقى فى البحر . ولقد كان هذا هو بيت العرافة الساحرة . لقد كانت هذه العرافة تطعم من فمها الكريه الواسع ضفدعاً بحرياً بشعاً كما كانت أيضاً تدعو الثعابين والأفاعى الهائلة بلفظ « أفراخى » ساحة لها بأن تلتف وتتجمع على صدرها . قالت العرافة حين أبصرت الفتاة :

— إنى أعلم جيداً ما ترغبين منى ، ومع علمى بأن ما تريدينه ضرب من الحماقة ، أوافق عليه . إنك تريدين أن تمتاضي من ذنبك أطرافاً كأطراف البشر ، كى يتدله بك الأمير ، فتتمكنى من الحصول على روح خالدة . وفى أثناء تكلم العرافة هكذا ، كانت تنطلق من شدقها ضحكة هائلة مرعبة سقطت لاهتزازها على الأرض الثعابين والضفادع الواحد بجانب الآخر . ثم استأنفت الساحرة قولها :

— لقد جئت فى وقت ملائم لأنه لو طلعت عليك شمس الغد لما استطعت أن أساعدك حتى مرور سنة على الأقل ... لسوف أركب لك شراباً تحملينه إلى الأرض قبل انبلاج الفجر ، وسوف تجلسين على الشاطئ وتتجرعينه هناك . وحينئذ يسقط عنك ذنبك السمكى وينقلب إلى ما يسميه الرجال هناك رجلين جميلتين . ولكن هذا سوف تتحملين فى سبيله صنوفاً من الأوجاع ، حتى لتظنين نفسك من الألم قد تشطرين شطرين بسيف قاطع . ولكن سوف يعلن كل من يراك أنك أجمل وأفتن مخلوقة وقعت عليها عينه . ثم إنك سوف تحافظين على مشيتك المتموجة المتأودة التى ستحسدك عليها أرشق الراقصات هناك، وكل خطوة تخطينها ستؤلمك كما يؤلمك المشى على سكاكين مرهفة . إنك إن ترضى بكل هذه الاختبارات والآلام ، أساعدك كما تشائين . فأجابت العروس الصغيرة بصوت مرتجف وهى تفكر فى لقيا الأمير ونشوة الحصول على روح خالدة :

— رضيت

قالت العرافة :

— واذكرى أيضاً أنك منذ الحين الذى تتشكلين فيه بشكل فتاة بشرية لن تستطيعى أبداً أن تعودى عروساً للماء ، ولا أن تنزلى إلى أعماق الماء بين أخواتك وأهلك فتبصرى قصر أبيك . ولئن لم تكتسبى محبة الأمير وتشغفيه حباً لدرجة أن ينسى لأجلك أباه وأمه ويرتبط معك روحاً وجسداً كما يرتبط الأزواج المحبون المتيمون بعضهم ببعض ، إن لم تحصلى على هذا فثقى أنك لن تحرزى أبداً روحاً خالدة . أما إذا تزوج الأمير واحدة من جنسه ولم يحفل بك فسوف تتحطمين

وتنقلبين إلى رُغاء طائش من الزبد على البحر

فقالت عروس البحر الصغيرة وقد امتقع وجهها امتقاع وجوه الموتى :

— إنى لأرضى بكل ما ذكرت

قالت العرافة :

— وإذن فيلزم أن تدفعى لى شيئاً . وما أطلبه سوف يكلفك غالياً وعزيزاً . إنك لتنعمين بصوت ساحر شجى ما سمعتْ بمثل عذوبته ورنينه أذن عروس بحر . وبه تستطيعين بسهولة أسر قلب الأمير. وعلى هذا فستمنحيننى إياه لأنى أودُّ أن أحوز أحسن ماعندك من منح إلهية ، فى مقابل الشراب الذى سأصنعه لك والذى سأمزج فى تركيبه شيئاً من خالص دمى كى يزداد فعله .

قالت عروس البحر الصغيرة :

— ولكن إذا سلبتنى صوتى البديع فماذا يبقى لى بعد ذاك ؟

قالت الساحرة :

— قدك الأهيف ومشيتك الراقصة المتموجة ثم عيناك الساحرتان الناعستان . وذلك كاف لأن يَسبى قلب الأمير . ولكن ماذا ؟ أراك تفقدين شجاعتك ؟ هيا مدى لسانك كى أستلّه ثمن تحضير شرابك السحرى

قالت عروس البحر الصغيرة :

— ليكن ما تشائين

فوضعت العرافة قدراً على النار لإنضاج هذا الشراب العجيب ، ثم قالت :

— إن النظافة تجب فى مثل هذه الأشربة .

قالت هذا وطفقت تدلك القدر بثعبان هائل عقدته على يديها كحزمة أو مسّاحة . ثم إنها حفرت فى صدرها ثغرة راح يندفق منها دمها غزيراً فى القدر ؛ فأخذ الدخان المتصاعد من القدر أشكالاً وتهاويل سحرية . . . ولم تكن تغفل العرافة لحظة عن إلقاء عقّار جديد أو دواء غريب فى القدر . وحين بلغ المركب الجهنمى درجة الغليان ، راحت تنبعث لنشيشه زمجرات كزمجرات التماسيح ... وأخيراً أصبح الشراب مضيئاً شفافاً كالماء ، قالت العرافة :

هاك هو ... ثم ... ثم اجتثت لسان عروس البحر الصغيرة التى أصبحت بعد ذلك لا تستطيع نطق حرف ولا ترجيع لحن . ثم قالت العرافة :

— إذا حاولت الأخطبوطات أن تتعلق بك وتقبض عليك حين اجتيازك الغابة المخيفة ، فما عليك إلا أن تلقى عليها قطرة من هذا الشراب ، فإذا أرجلها وأيديها تتمزق وتتطاير فى عرض البحر ...

لكن لم تكن عروس البحر محتاجة إلى شىء من هذا ، لأن الأخطبوطات الهائلة تقهقرت مذعورة حين أبصرت هذا الشراب الساحر الذى كان يلتمع ويضيء فى يد عروس الماء كما يضيء البدر فى غيهب الليل ... وهكذا عبرت عروس البحر فى رشاقة الغابة فالمستنقع الوبئ فالدوّار المزبد الهائل ...

ولاح لها بعد ذلك قصر أبيها وقد انطفأت أنواره وغرق كل من فيه فى بحر من نوم عميق . ولما لم تستطع وهى خرساء أن تلجه ، اكتفت وقلبها يكاد يتصدع ألماً وهى تغادر قصر أبيها إلى الأبد أن ترسل من يديها قبلاً مشوقة حارة إلى كل واحدة من أخواتها ، ثم رقت إلى سطح البحر الأزرق الداكن

لم تكن الشمس أشرقت بعدُ حين شاهدت

قصر الأمير وجازت سلاله المرمرية بجانب البحر تحت ضوء القمر . هناك تجرعت الدواء المرعب الكريه فدارت بها الأرض ، وأحست كأن جسمها الرقيق ينشطر بسيف ماض إلى شطرين ، ثم أخذتها غاشية الألم فغابت عن الوجود ... وحين بدت تباشير الصبح تنبهت من إغمائها شاعرة بآلام لا توصف ، فإذا الأمير منتصب أمامها يرمقها بعينيه الحوراوين الساحرتين . وأغضت الفتاة حياء فإذا بها ترى نفسها بغير ذنب وإذا مكان الذنب ساقان بيضاوان غضتان ناعمتان تتمناها لنفسها كل فتاة . . . وحين شاهدت نفسها عارية أمامه لا يستر جسمها الفاتن غلالة أسبلت على قدها المياس غدائرها الطويلة الغزيرة ...

وسألها الأمير : من هي ؟ وكيف جاءت إلى هذا المكان ؟ فأثبتت فيه نظرات من عينين زرقاوين فاتنتين هادئتين ولم تحر جواباً لأنها كانت خرساء . فتناول الأمير يدها وقادها إلى قصره كما تكهنت سابقاً بذلك العرافة . وفي الطريق كانت عروس الماء تحس كل خطوة تخطوها كأنها تدوس على سكاكين ونصال حادة ولكنها كانت تتحمل هذه الأوجاع في استسلام وجلد . ولما بلغت مع الأمير القصر كانت تمشي إلى جانبه في رشاقة فقاعة الصابون . فأعجب هو وكل من في القصر لهذه المشية الراقصة المتموجة

وألبست عروسُ الماء الصغيرة ثوباً قشيباً من الحرير فبدت في أبهاء القصر أجمل وأفتن غادة فيه لولا أنها كانت خرساء لا تستطيع نطقاً ولا غناء .

وذات ليلة ، تقدمت جوقة من مغنيات قصر الأمير ، فتغنين أمامه أعذب ما يكون الغناء . وتفوقت واحدة منهن على زميلاتها فيه ، فصفق لها الأمير وهتف باسمها وابتسم في وجهها . وحينئذ بدا حزن صامت مؤلم على عروس البحر ، حين ذكرت أنها لو كانت تمتلك حنجرتها الشجية الآن لأزرتْ بكل المغنيات وأخجلتهن بحنو صوتها . بعد ذلك أخذن المغنيات ، في رقصات رشيقات مثيرات ترافقها نغمات شجيات من الموسيقى . وعند هذا لم تملك عروس الماء نفسها ، فانخرطت في سلكهن وحملت جسمها على أطراف أصابعها الدقيقة ، ثم انزلقت على بلاط القاعة ترقص رقصات لم ترقص مثلها راقصة . وكانت كل حركة منها ولفتة تبرز تقاسيم ساقيها الجميلتين ، بينما عيناها توحيان إلى القلوب من المعاني الصامتة ما لا تفصح عنه لغة الغناء . كل من حضر هذه الحفلة ملكته الدهشة وأسره الإعجاب برقصاتها المدهشة المتأودة ، خصوصاً الأمير . ولقد استمرت عروس البحر الصغيرة في دورات رقصاتها رغم أن كل خطوة أو لفتة كانت تسبب لها آلاماً لا تطاق ...

وأذن لها الأمير أن تظل دائماً بقربه وسمح لها أن ترقد بجانب باب غرفة نومه على وسادة الديباج والمخمل . ولكن ذكرى أخواتها وقصرها البحري العجيب ، ما كانت تبارح ذهنها . ففي ذات ليلة ، ظهر أخواتها عرائس البحر على وجه الدأماء ، وهن متعاقدات الأيدي وسابحات يردن نشيداً مؤلماً مشجياً . فنادتهن عروس البحر الصغيرة بكلمات لا تبين ، وكانت إذ ذاك واقفة في شرفة قصر الأمير وعرفها أخواتها بعد جهد ، فرحن يحدثنها ويبثثنها لوعة النوى وجوى الفرقة ...

ومن ذلك الحين كن يترددن إلى أمام شرفة قصر الأمير فى أكثر الليالى، وذات مرة شاهدت عروس الماء جدتها العجوز التى لم تصعد منذ سنين إلى سطح البحر . وفى مرة أخرى شاهدت أباها ملك البحر قد صعد إلى وجه الماء بتاجه النفيس ...

كان حب الأمير يزداد يوماً عن يوم ، ولكنه كان حب إعجاب وإشفاق فقط. فلم يدر له فى خلده مرة أن يتخذ منها أميرة لقصره . مع أنه كان ينبغى لها أن تكون امرأته الشرعية ، كى تمنح نعمة الروح الخالدة. أما فى اليوم الذى يقترن الأمير بغادة غيرها، فإنها لن تكون يومذاك ويا للأسف غير رغاء من الزبد الفاشى على وجه البحر . وكانت عيناها تقولان للأمير حين يضمها إلى صدره ويقبلها فى جبينها :

— ولكن ألا تؤثرنى يا سيدى على كل غادة فى قصرك ؟ فكان يجيبها :

— أوه نعم ، إنى لأفضلك على كل فتاة ، لأن قلبك أطهر ولأنك أخلص لى حباً ، ثم إنك تشبهين كاعباً حسناء شاهدتها فيما سلف من أيامى ، ولكنى لن أكحل عينى برؤيتها يوماً . لقد كنت ذات يوم على سطح سفينة مشرفة على الغرق ، فقذفتنى الأمواج إلى شاطئ البحر بقرب كنيسة كانت تلميذاتها غيدا حسانا ، فأنقذتنى من الغرق أفتاهن سناً وأملحهن وجهاً . ومع أنى لم أرها إلا مرتين فقط ، فإنه لم يتصب قلبى سواها من الغيد الأماليد . ولكنك أنت تشبهينها وتكاد صورتك أن تطمس صورتها من صفحة قلبى . إنها تخص الكنيسة ، وقد نذرت نفسها لها ، لهذا فإن حظاً حسناً قادك إلى هنا فى قصرى فلن نفترق أبداً . فكانت عروس الماء حين تسمع هذا القول تفكر :

— آه ، إنه لا يدرى بأنى أنا التى نجيت حياته وحملته على صدرى فوق أعراف الموج إلى دير الغابة !

وذات يوم أذيع أن الأمير عزم أن يتزوج أميرة فاتنة حسناء هى بنت ملك مجاور لأبيه ، وأن الفتى سيبحر إلى عروسه فى سرب رائع فاخر من الزوارق ورهط ممتاز من الحاشية والأتباع

وحين استقل الأمير السفينة التى كانت تحمله إلى بلاد عروسه وخطيبته ، أخذ يخاطب عروس الماء الصغيرة التى أبى إلا أن تصحبه فى سفرته ، فكان يقول لها :

— كيف لا تفزعين يا حسنائى الخرساء من ركوب البحر ؟

فكانت عروس البحر تبتسم فى وجهه حزينة أسوانة ، لأنها تعلم أن ليس أحد على وجه اليابسة يبزها أو يضاهيها فى السباحة والعوم

وفى صبيحة صافية جميلة رست سفينة الأمير فى ميناء بلاد الملك الذى سيصاهره الأمير فكان لخبر قدوم الأمير لخطبة الأميرة احتفالات شائقة رائعة ، ومهرجانات حماسية قرعت فيها نواقيس الكنائس وصدحت ألحان الموسيقى وسرت معالم الزينة والابتهاج فى كل محل . ولكن الأميرة العروس لم تكن إذ ذاك فى المدينة . إذ كان أبوها الملك أرسلها منذ زمن إلى دير على شاطئ البحر لتهذيب نفسها وتنوير روحها بضياء الدين والمعرفة . وكانت عروس البحر الصغيرة خلال ذلك تتشوق إلى رؤية جمال هذه الأميرة الفاتنة ... وأخيراً وصلت الأميرة إلى المدينة ، وحين أبصرتها عروس الماء اعترفت لنفسها بأنها لم تر فى حياتها أجمل منها ولا أشد سحراً وجاذبية . وحين أبصرها الأمير الجميل طوقها بذراعيه وهتف فى ابتهاج :

— آه إنك أنت بنفسك التي أنقذت حياتي حين كنت مضطرعاً بين الأمواج بحثة لا حراك فيها !

ثم قال لعروس الماء :

— إن سعادتي بلقيا التي طالما بحثت عنها لا يعدلها سعادة . ألا فافرحي لي وانشرحي يا فتاتي ، لأنك تحبينني أكثر مما يحبني شخص في هذا العالم.

فأهوت عروس البحر على يديه تقبلهما وقلبها يتصدع ألماً ونفسها تسيل حسرات . لأنها استيقنت أن مساء يوم الزواج سوف لا يبقى من جسمها الفاتن إلا رغاء من الزبد يطفو على وجه البحر

وفي مساء يوم الزواج ركب العروسان الفتيان زورقاً رائع الزينة للنزهة ، فقصفت عند ركوبهما أصوات المدافع ودوت أبواق الجند، ثم خرج زورق العروسين يتخطر على أديم الماء ، وقد نصب في وسطه سرادق ملوكي أرجواني مذهب الحاشية فرشت أرضه بالوسائد والنضائد الوثيرة التي كان ينام عليها الأمير والأميرة تحت جنح ليل معتدل الهواء وفوق سطح بحر هادي الريح . وحين هبط الليل أشعلت على ظهر السفينة الملوكية مئات من المشاعل الملونة ، بينما أخذ ربانوها يرقصون ويقصفون على نخب أميرهم الهاني رقص الحبور والطرب . فكانت عروس البحر وهي على ظهر السفينة تفكر في أول مرة من حياتها صعدت فيها إلى سطح البحر وكيف أن هذا المنظر بذاته اجتذب نظرها وفتن لبها ، وحينئذ اندمجت مع الراقصين والراقصات على ظهر السفينة ، وطفقت ترقص وتتأود كما يتراقص « السنونو » في أجوائه فصفق لها جميع الموجودين . أبداً لم تتقن الرقص وتتفنن في أساليبه تفننها هذه المرة . لقد كان يخيل إليها أن قدميها الطريتين الصغيرتين تتمزقان وتتقطعان بمرهفات النصال ، ولكن آلام نفسها كانت من المرارة والجسامة بحيث لم تشعر معها بآلام جسدية . لقد كانت تتيقن جيداً أنها تشاهد الآن لآخر مرة ذاك الذي هجرت من أجله أهلها وفارقت موطنها ونزلت مختارة في سبيل اللحاق به عن جمال صوتها النادر . هي آخر ليلة تتنسم فيها نفس الهواء الذي يتنسمه الأمير ، وتتملى بمشاهدة السماء المزدانة بالزواهر والشهب . إن ليلاً سرمدياً خالداً من غير حلم ، طويلاً من غير يقظة أو حس ينتظرها هناك على وجه البحر حين تنقلب رغاء طائشاً لأنها لم تستطع أن تقترن بالأمير الحبيب فتنال معه نعمة الروح السرمدية الآبدة

كل شيء على ظهر سفينة الأمير كان يمثل السرور والسعادة ... ومضى نصف الليل وعروس الماء الصغيرة ترقص وتغني ولكن مأتم الحزن كان يعول وينوح في قلبها الحزين . لقد كان الأمير في تلك الساعة غارقاً في لذة عناق زوجه ، والأميرة تداعب خصلات شعره الرخو الحالك ، ثم ... ثم تشابكت منهما الأيدي وتلاقت الشفاه فغرقا تحت السرادق في خلوة وجلوة ما أحلاها لأنها جلوة العرس ...

وحينئذ غمر سكون الليل وسجو البحر جو السفينة فما كان متيقظاً عليها إلا ربان الإدارة والدفة وإلا عروس البحر المرزأة وقد أسندت ذراعها على « درابزين » السفينة وأخذت ترقب تبلج الفجر وصبغه وجه الأفق بلونه الوردي اللازوردي ، وقد علمت أن أول شعاع من أشعة شمس هذا النهار سيكون في إشراقه هلاكها وتلاشيها من الوجود

وفجأة أبصرت على أعراف الموج أخواتها الخمس وقد امتقعت وجوههن وتجردن من شعورهن الطويلة فقلن لها :

— لقد أعطينا شعورنا الطويلة للعرافة الساحرة كي ترق لك فتخفف لمساعدتك وتؤجل موتك هذه

الليلة ... ورضيت الكاهنة بعد لأى فأعطتنا مدية هى هذه، وأنت ترين كم هى حادة رهيفة... يجب عليك ياأختنا العزيزة أن تغرزيها قبل انفلاق الصبح فى قلب الأمير، وحين يسيل دمه تحت قدميك، سوف تلتصق رجلاك وتكونان لك ذنباً سمكيا ، وحينئذ تعودين عروساً للبحر كما كنت وتنعمين فى الموج وتعيشين ثلاثمائة سنة قبل أن تفنى وتصيرى زبداً عائماً على البحر ... إن الأمر خطير يا أختاه ، فيجب أن يقضى الأمير قبيل شروق الشمس ، ولم يبق لذلك غير لحظات . إن جدتنا العزيزة ألحّ عليها الحزن حتى أسقط شعورها البيضاء ، كما سقطت شعورنا الجميلة كما ترين تحت مقص الكاهنة الشرهة القاسية لأجلك ... اقتلى الأمير وأسرعى بحياتنا عليك ... انظرى ، لقد اصطبغ وجه الأفق بوهج الشفق الأحمر ، وما هى إلا هنيهات حتى تبرز الشمس وأنت تعلمين أن هلاكك فى إشراقها . قلن ذلك ، ثم تنهدت العرائس أميرات البحر تنهدات حارة ، وغطسن فى غمر الأثباج ...

وحصرت عروس البحر الصغيرة ستار الخيمة الحمراء ، فإذا الأمير والأميرة نائمان ، وقد أراحت الأميرة رأسها على صدر الأمير . واقتربت عروس البحر منهما ، ثم انحنت على الشاب واقتطفت من جبينه قبلة هيمانة والهة ، ثم علق نظرها بالسماء حيث موكب عروس النهار بدأ فى الارتفاع . ونظرت إلى المدية ، ثم عادت فنظرت إلى الأمير . فإذا به يردد فى أحلامه اسم زوجه الأميرة ، الشخص الوحيد الذى تهجس به أحلامه وتتناغى أمانيه . لقد كانت السكين ترتجف وتلتمع بين يدى عروس الماء ، ولكنها سرعان ما قذفتها إلى عرض البحر ... ونظرت مرة أخيرة بعينيها الغائمتين إلى الأمير الناعم الحالم ثم قذفت بنفسها من أعلى السفينة إلى أعماق البحر حيث شعرت بأن جسمها يذوب ويتحلّ إلى قطع من زبد البحر

فى عين اللحظة ، ارتفعت الشمس عن الأفق فداعبت أشعتها الدافئة وجه البحر المقرور... ولكن عروس الماء أحست بأنها لم تمت حتى الآن ... لقد أبصرت توهج الشمس وائتلاقها ، وتراءى لعينيها السماء كأنها كائنات لا تحصى ذات جمال لا يوصف: جمال نورانى شفاف . حتى لكانت عروس البحر تميز خلال أجسام هذه المخلوقات بياض شراع السفينة واحمرار شفق الأفق . لقد كان لأصوات هذه الكائنات الجميلة السحرية رنات أين منها رنات المثالث والمثانى ، بل كانت عذوبة حناجرها من الرقة والحنو واللطافة بحيث لا يتسنى لأذن بشرية سماعها ولا لعين إنسانية رؤية أشكالها النورانية. لقد كانت هذه المخلوقات العجيبة ترف وترف فى الهواء دون أجنحة للطيران . بل كانت تحلق فيه بخفة أجسامها ولدونتها. ولكن الدهش أن عروس البحر شاهدت نفسها هى أيضاً ذات جسم مثل هذه الأجسام الشفافة النورانية وترف بينهن فى جو السماء دون جناح . سألت مستفهمة :

— ولكن إلى أين أسير ؟ فإذا صوتها الأخرس يرن ويُشجى كهذه الأصوات السماوية التى أبداً لن تستطيع نقلها إلى آذاننا موسيقى أرضية . فأجابت عروس الماء أصوات أخرى حولها :

— إنك عندنا نحن عرائس الهواء والأجواء .. إن عروس البحر لا تملك روحاً خالدة ولا تستطيع الحصول على واحدة إلا أن تكتسب محبة رجل من الأرض اليابسة . وإذن فحياتها السرمدية الخالدة تتعلق بإرادة الآخرين

أما نحن عرائس الأجواء فكذلك لا نملك روحاً باقية ولكننا نستطيع أن نحوزها بأعمالنا الصالحات الباقيات . إننا نطير دوماً إلى البلاد الاستوائية ذات الإقليم الحار المشتعل المزهق للأنفاس فننقل إلى سكانه البرودة والطراءة ، وننشر فى رحب أجوائهم عطوراً منعشة مؤرّجة ، كى تخفّف وطأة الإقليم عن سكانه ، وننفس هناك هواءهم المحتبس المخنوق الحار ... وبعد قضاء ثلاثمائة سنة فى مثل هذه الأعمال التى نأخذ أنفسنا نحن عرائس الجو بإنجازها لسكان الأقاليم الحارة نحظى بروح خالدة ونشترك فى سعادة الخلود مع بنى البشر ، وأنت الأخرى يا عروس البحر الصغيرة المخلصة ، لقد جهدت فى فعل الخير وتألمت فى سبيله ألماً تستحقين معه بعد مضى ثلاثمائة عام أن تعيشى وتنعمى بروح خالدة آبدة ...

وهنا رفعت عروس البحر فى دهشة وحيرة عينيها إلى السماء شاكرة ، فتحدرت على خديها دموع الحمد والاعتراف . وكانت أولى دموع عرفتها فى حياتها .

كانت الحياة والحركة على شاطئ البحر فى ذلك الحين تموج وتنبعث فشاهدت عروس البحر حبيبها الأمير وعروسه يبحثان عنها فى كل مكان ... ثم ينظران فى حسرة إلى البحر كأنما عرفا أمر إلقاء نفسها فى أحضانه ...

ودون أن تراها عين بشرية طبعت على جبين الأمير قبلة مخلصة حارة . ثم تبلج وجهها وأضاء ، وانقذفت مع زميلاتها عرائس الأجواء فى غمرة أمواج الضياء ، ترفّ وإياهن فى مملكة الهواء ...

كمال الحريرى

بنـــك مصر

اكبر مؤسسة ماليـــة مصرية

تنشىء الصنـاعات الكبرى

وتقيم دعائم الاستقلال الاقتصادى

عاملوه ... وعاملوا شركاته تكتبوا ... النصر لبلادكم

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبتديان — عابدين)